رئيب المدينة

كريس فيليش يقدم لمحة عن شخصية **إدوارد غلايزر** الأستاذ في جامعة هارفارد الذي يرى في التوسع الحضري مسارا نحو الرخاء

الصورة: PORTER GIFFORD

نشأ إدوارد غلايزر في مدينة نيويورك في سبعينات القرن الماضي ليشهد حاضرة عظيمة تنهار. فمعدلات الجريمة في صعود حاد، والقمامة تتراكم على جانبي الطريق بعد أن أضرب عمال النظافة عن العمل. كانت المدينة تترنح على حافة الإفلاس.

ومع انتصاف الثمانينات، بات واضحا أن مدينة نيويورك ستسترد عافيتها. لكنها ربما كانت لا تزال مكانا مخيفا حينذاك؛ فقد قُتِل ثلاثة أشخاص على الجانب الآخر من الشارع الذي تقع فيه مدرسته في شمال غرب حي مانهاتن. ومع هذا، كان غلايزر مفتونا بالحياة الصاخبة التي تعج بها شوارع نيويورك وكان يقضي ساعات طويلة متجولا في أحيائها.

ويقول غلايزر مستحضرا تلك الحقبة في مقابلة أجريت معه في مكتبه بجامعة هارفارد: «لقد كانت رائعة ومروعة في آن، وكان من الصعب ألا أُفتَن بها».

واليوم، لا يزال هذا الشعور بالانبهار متغلغلا في عمل غلايزر كخبير في الاقتصاد الحضري. فهو يستخدم عُدَّته النظرية كخبير اقتصادي لاستجلاء أسئلة مستوحاة من فترة شبابه في نيويورك. لماذا تخفق بعض المدن وتنتعش أخرى؟ وما الذي يفسر التكلفة الفلكية للسكن في سان فرانسيسكو؟ وكيف يختلف نمو المدن في البلدان الغنية عنه في البلدان الفقيرة؟

ويقول غلايزر البالغ من العمر ٥٢ عاما: «دائما ما أرى نفسي طفلا محبا للاستطلاع». وبدلا من «المُضي على درب الأدبيات المستقرة»، يقول غلايزر إنه يبدأ دائما بمحاولة استيعاب «أمر غير مفهوم» بالنسبة له.

وبينما كان لا يزال طالب دراسات عليا في جامعة شيكاغو، وضع غلايزر بصمته كصاحب نظرية في مزايا التجمع الحضري –فكرة أن المدن الكثيفة والمتنوعة سكانيا هي حواضن للابتكار والطاقة والإبداع تمثل وقودا للنمو الاقتصادي. وفي السنوات منذ ذلك الحين، غطى عمله موضوعات مذهلة في تنوعها، من تنظيم الإيجارات وقطاعات العقارات إلى حقوق الملكية والعصيان المدني وانبعاثات الكربون.

ويقول عنه لورنس سامرز، الأستاذ في جامعة هارفارد الذي كان مديرا للمجلس الاقتصادي القومي في إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما: «مضى عقدان من الزمان ولا يزال إدوارد هو المفكر الرائد في مجال اقتصاديات المكان». ويضيف أن «اقتصاديات المناطق الحضرية أصبحت تحتل موقعا محوريا متزايدا ضمن القضايا الاقتصادية واسعة النطاق».

ويعمل غلايزر وسامرز معا على إعداد دراسة عن الفارق الذي يزداد رسوخا في الولايات المتحدة بين المناطق الساحلية الغنية التي تسكنها الطبقات الحاصلة على تعليم جيد، وجُزر الركود الاقتصادي فيما يسمونه «قلب الأرض الشرقية» (“eastern heartland”)، وهي الولايات الداخلية شرق نهر المسيسيبي. وفي تلك الولايات، في مدن مثل فلينت وميشيغان، يوجد ارتفاع متزايد في نسبة العاطلين من الرجال في مقتبل العمر — إلى جانب معدلات إدمان الأفيون والإعاقة والوفيات.

فكيف يمكن للسياسات أن تساعد في هذا الصدد؟ درج خبراء الاقتصاد على التشكك في قيمة السياسات الموضعية على غرار مناطق المشروعات الاستثمارية التي تقدم تخفيفا ضريبيا للمستثمرين، وذلك لأنهم يرون مساعدة الناس أفضل من مساعدة الأماكن. وكانوا يفترضون أن الناس ينتقلون إلى حيث توجد فرص العمل. لكن تنقل العمالة قلّ في العقود الأخيرة، وهو ما يرجع في جانب منه إلى ارتفاع تكاليف السكن، وفي جانب آخر إلى انخفاض الطلب على عمال المصانع غير المهرة نسبيا.

وفي خروج على الأعراف الاقتصادية التقليدية، يقول غلايزر وسامرز إن الحكومة الفيدرالية ينبغي أن تصمم إجراءات خاصة تدعم توفير الوظائف، مثل تخفيض ضريبة الأجور أو زيادة الخصم الضريبي للعائلين أصحاب الدخل المنخفض، لكي تتلاءم مع احتياجات المناطق المتعثرة اقتصاديا، مثل ولاية وست فيرجينيا. وهما يطرحان الحجج أيضا على أهمية زيادة الاستثمار في التعليم.

ولأن غلايزر اقتصادي تدرب في شيكاغو، فهو يعتقد بقوة في سحر الأسواق الحرة ويعارض الإجراءات التي تشوه الحوافز. وفي هذا السياق يقول: «»كنت دائما ضد إعادة التوزيع المكاني، أي الأخذ من المناطق الغنية وإعطاء المناطق الفقيرة. وهذا لا يعني أنه ينبغي تطبيق نفس السياسات في كل مكان».

وقد بدت اقتصاديات المناطق الحضرية تخصصا طبيعيا بالنسبة لغلايزر. فوالده الألماني المولد، لودفيغ، كان مهندسا معماريا وهو الذي علمه كيف تشكل البيئة المبنية حياة الناس. أما والدته، إليزابيث التي كانت تعمل في مجال إدارة الأصول، فهي أول من عرفه بعلم الاقتصاد. ويتذكر غلايزر كيف استخدمت مثال الإسكافيين المتنافسين لشرح مفهوم تسعير التكلفة الحدية.

ويقول: «أتذكر أنني أحسست ساعتها كيف أن التفكير في تأثير المنافسة أمر رائع وجذاب». وكان في العاشرة من عمره آنذاك.

وفي المدرسة الثانوية، تفوق غلايزر في مادتي التاريخ والرياضيات. وحين التحق بالدراسة في جامعة برينستون، فكر في تخصص العلوم السياسية قبل أن يختار الاقتصاد ليكون طريقه إلى وول ستريت. لكن احلامه بالعمل في المجال المالي انتهت مع انهيار سوق الأسهم في عام ١٩٨٧، وكان قد بدأ منذ فترة قصيرة في إجراء مقابلات بحثا عن وظيفة. ومن هنا اختار البدء في الدراسات العليا، لأنه، كما قال، «لم يكن يبدو أن هناك خيارات كثيرة يمكن أن يخسرها».

ويستطرد: «فالتحقت بجامعة شيكاغو، وحينئذ وقعت في حب الاقتصاد بالفعل».

ويحتفظ غلايزر بصورة داخل إطار يظهر فيها مع غاري بيكر، أستاذ الاقتصاد في جامعة شيكاغو والحاصل على جائزة نوبل. وقد تعلم من بيكر أنه يمكن استخدام الأدوات النظرية التي يقوم عليها هذا التخصص لاستكشاف موضوعات كانت من قبل في نطاق مجالات مثل علم

المدن تزدهر بفضل الإبداع الذي يتحقق حين يعيش الناس جنبا إلى جنب فيتبادلون الأفكار والمعرفة.

الاجتماع أو علم الإنسان — موضوعات مثل التمييز العنصري والخصوبة والأسرة.

يقول غلايزر: «هذا الشعور بالجانب الإبداعي في علم الاقتصاد الذي يمكن غزله في أي نسيج تقريبا لمحاولة فهم أي مشكلة تراها مهمة — كان هذا هو الجانب الذي يمثل لي غاية الإثارة».

وفي تلك الفترة، كان روبرت لوكاس وبول رومر، أستاذا الاقتصاد في جامعة شيكاغو، يعملان على بلورة ما يسمى «نظرية النمو الداخلي»، التي تركز على دور الابتكار وتبادل الأفكار في التنمية الاقتصادية.

وحسبما يتذكر غلايزر، أشار لوكاس إلى المدن باعتبارها أماكن يحدث فيها انتقال للمعرفة — أي أن الناس يستطيعون الاستفادة من أفكار الآخرين دون مقابل. لننظر إلى مدينة مثل ديترويت في مطلع القرن الماضي، حيث استفاد هنري فورد من خبرته كرئيس للمهندسين في شركة إديسون للإضاءة ليبدأ مشروعه الخاص في مجال صناعة السيارات.

وقد استوحى من هذا المفهوم دراسة رائدة في عام ١٩٩٢ تحت عنوان «النمو في المدن». وبدأ غلايزر وثلاثة مؤلفين مشاركين في استخدام المدن كمعمل لاختبار نظريات النمو الجديدة. وباستخدام بيانات ٣٠ عاما تغطي ١٧٠ مدينة أمريكية، خلص المؤلفون إلى أن المنافسة المحلية والتنوع، وليس التخصص، هما المحركان الأساسيان للنمو في المناطق الحضرية.

وعلى الفور، لمع نجم غلايزر بعد صدور الدراسة وعرضت عليه جامعة هارفارد العمل بها.

وعن غلايزر يقول جوزيف غيوركو، الأستاذ في كلية وارتون بجامعة بنسلفانيا والذي تعاون معه في العمل لفترة طويلة»أثبت إدوارد أن التنوع الحضري، وليس التخصص في شيء بعينه، دافع كبير لنمو التوظيف. وكانت هذه بالفعل مقالته الأولى التي يكثر الاستشهاد بها، وبالتالي فهي التي وضعته على أول الطريق».

وقد بدأ غيوركو وغلايزر يعملان معا في مطلع الألفية الثانية، حين حصل غلايزر على إجازة للبحث والدراسة لمدة عام في جامعة بنسلفانيا. وتساءلا معا عن سبب بطء التدهور في أحوال بعض المدن مثل ديترويت، ولماذا مكث فيها الكثيرون بدلا من الانتقال إلى مكان آخر. وتوصلا إلى جواب بسيط: المساكن سلعة معمرة بطبيعتها، ومع الركود الذي تمر به المدن، يصبح العيش فيها أقل تكلفة.

وأثارت هذه الرؤية سؤالا ذا صلة: ما السبب في أن تكلفة السكن أعلى بكثير من تكلفة إنشاء المساكن في مدن مثل نيويورك وبوسطن؟ الجواب هو أن القيود المفروضة على استخدام الأراضي تحد من الكثافة السكانية، مما يكبح عرض المساكن ويدفع الأسعار إلى الارتفاع. كان هذا من أبجديات علم الاقتصاد، ولكن حتى ذلك الحين لم يكن المتخصصون في اقتصاديات المناطق الحضرية قد ركزوا بعد على دور التنظيم في هذه الظاهرة.

ويرى غلايزر أن التنظيم المفرط يدمر جوهر الحياة الحضرية – وهو الكثافة. فالمدن تزدهر بفضل الإبداع الذي يتحقق حين يعيش الناس جنبا إلى جنب فيتبادلون الأفكار والمعرفة. ومدن الحزام الشمسي، مثل هيوستن، نمت بسبب سهولة البيئة التنظيمية التي تُبقي أسعار المساكن في مستوى غير مكلف.

ويرى الاقتصاديون أمثال غلايزر أن القواعد التنظيمية للبناء وتقسيم المناطق تمثل ضريبة على التنمية. فهناك ضرائب منطقية من المنظور الاقتصادي، لأن البناء يفرض تكاليف على المقيمين في صورة ضوضاء وازدحام مروري وتلوث. لكن التشدد المفرط في التنظيم، والذي غالبا ما يحركه السكان الساعون إلى منع دخول سكان جدد وحماية قيم عقاراتهم، فيمكنه أن يرفع أسعار المساكن إلى مستويات في غير متناول غالبية الناس.

كذلك يتشكك غلايزر في قواعد حفظ التراث التاريخي، مما يثير الفزع لدى أتباع جين جاكوبز، الشهيرة بانتقادها اللاذع لمشروعات التجديد العمراني واحتفائها بالحيوية المتدفقة في شوارع الأحياء العرقية القديمة في نيويورك. والواقع أن غلايزر من أشد المعجبين بجين جاكوبز — حتى أنه يحتفظ بنسخة موقعة بخطها من كتابها الأبرز الصادر في عام ١٩٦١ بعنوان موت وحياة المدن الأمريكية الكبرى (*The Death and Life of Great American Cities*) — لكنه يرى أن جهودها في معارضة التنمية في حي غرينيتش فيليدج كانت تتناقض مع تأييدها لإسكان محدودي الدخل.

ويقول في هذا الصدد: «أنا أؤمن بأن كثيرا من مبانينا العريقة هي كنوز نفيسة. لكنني لا أدعي في نفس الوقت أن هذا طريق يصل بنا إلى توفير المساكن بتكلفة يمكن تحملها. فالتكلفة التي يمكن تحملها تتحقق إذا بنيت مساكن رخيصة بكميات كبيرة أو مساحات واسعة رخيصة للاستخدام التجاري. وقد لا تعجبك هذه المباني من المنظور الجمالي، لكن هذا هو المسار نحو أسعار في المتناول».

وفي عام ٢٠٠٠، نشر غلايزر دراسة بعنوان «مدينة المستهلك» ("The Consumer City") أعدها بالتعاون مع جِد كولكو وألبرت ساينز. وفي هذه الدراسة، ذهب بمفهوم التجمع خطوة أبعد، حيث قال إن الناس لا ينجذبون للفرص التي تتيحها المدن وحسب، بل أيضا إلى وسائل الرفاهية كدور العرض والمتاحف والمطاعم.

ويعلق على ذلك ريتشارد فلوريدا، أستاذ الدراسات العمرانية في جامعة تورونتو، بقوله: «نحن نعلم أن المدن يمكن أن تجتذب الشباب والمبتكرين أكثر من أي فئة أخرى.

وإدوارد كان يحدد العوامل الدافعة لذلك، إنها تلك الفكرة برمتها التي ترى أن المدن ليست أماكن للإنتاج فقط، وإنما أماكن للاستهلاك أيضا».

ويشعر غلايزر بالأسى لوجود سياسات مثل خصم الفائدة على القرض العقاري من الدخل الخاضع للضريبة، مما يشجع على شراء المنازل بدلا من استئجار الشقق؛ ودعم الطرق السريعة، مما يسهل القيادة إلى الضواحي؛ والنظام الدراسي الذي يتضرر منه الطلاب القاطنون في أحياء قاع المدينة. فهذه السياسات، في رأيه، ليست مضادة للتوسع الحضري وحسب، لكنها تساهم في تغير المناخ أيضا لأن سكان المدن، الذين يعيشون في بيوت أصغر ويستخدمون وسائل النقل الجماعي، يستهلكون كميات أقل من الكهرباء والبنزين مقارنة بنظرائهم من سكان الضواحي.

ومن الغريب، والحال هذه، أنه وزوجته نانسي، ولديهما ثلاثة أبناء، قررا الانتقال إلى ضواحي بوسطن منذ عدة سنوات. وبالنسبة لغلايزر، كان ذلك قرارا حكيما تماما: فالضواحي تمنحك مساحة أوسع للعيش، وفيها مدارس أفضل، ووسائل انتقال سريعة بدرجة معقولة.

وبعد أن أصبح غلايزر معروفا في الأوساط الأكاديمية، بدأ يصل إلى قاعدة أعرض من القراء بعد نشر كتابه الأكثر مبيعا عام ٢٠١١ بعنوان انتصار المدينة (*Triumph of the City*)، وفيه دراسة شائقة تتناول التوسع الحضري من بغداد العريقة إلى بنغالور الحديثة. ونظرا لبلاغته وحماسه، فقد أصبح متحدثا مطلوبا في المنابر الأكاديمية وفعاليات TED الحوارية. وفي كل مرة، تراه شديد الأناقة في بذلة مكوية بعناية، يقدم للناس عصارة فكره في مجال التوسع العمراني بجُمَله المنمقة سريعة الطلقات.

ورغم ما يتمتع به من شهرة، فهو يأخذ التدريس مأخذ الجد وكان سخيا بوقته،كما قالت ريبيكا دايموند، التي حضرت جلساته الاستشارية كطالبة في الدراسات العليا. وتضيف دايموند، التي تُدَرِّس الآن في جامعة ستانفورد ولا تزال على اتصال بغلازير: «لقد علمني رؤية الأمور من المنظور الصحيح وألا تستغرقني التفاصيل الصغيرة».

وفي الآونة الأخيرة، أصبح شغفه الرئيسي هو المدن في العالم النامي. وكعادته، يرى غلايزر أن هذه المسألة أرضا غير مطروقة نسبيا، حيث أغفلها خبراء الاقتصاد الحضري الذين يركزون على مدن الاقتصادات المتقدمة، وخبراء اقتصاد التنمية الذين يركزون على المناطق الريفية. وهي تنمو بسرعة أيضا، وبنيتها التحتية المادية والمؤسسية لا تزال قيد الإنشاء، ومن ثم فمشورة خبراء الاقتصاد بشأن السياسات الملائمة يمكن أن تُحْدِث أثرا.

وفي هذا الصدد يقول إن «خبراء الاقتصاد لديهم قدرة كبيرة على التأثير إذا انخرطوا في هذا المضمار. لذلك أظنه الأفق الجديد».

ويأخذه هذا إلى أماكن مثيرة للاهتمام أيضا. فقد أخذه آخر مشروع بحثي أجراه مع نافا أشرف وأليكسيا ديلفينو من كلية لندن للاقتصاد إلى أسواق مدينة لوساكا عاصمة

زامبيا لدراسة الحواجز أمام مزاولة النساء لريادة الأعمال. وتَوَصَّل الباحثون الثلاثة إلى أن خوض المرأة لمجال الأعمال تصبح احتمالاته أكبر إذا كانت سيادة القانون تتمتع بالقدر الكافي من القوة لمساعدتها في التغلب على عدم المساواة المتأصل في علاقاتها بالرجل.

وعلى غرار جين جاكوبز، يؤمن غلايزر إيمانا شديدا بقيمة مراقبة ما يدور حوله. يقول: «لا يمكنك أن تفهم أي مدينة فهما حقيقيا حتى تجوب شوارعها بالفعل».

يقول غيوركو إن «هذا هو ما يجعل من إدوارد صاحب نظريات تطبيقية من الطراز الأول. فأنت في حاجة إلى خوض معترك البيانات بنفسك. وفي بعض الأحيان، تكون البيانات في محيطك المباشر».

وبينما كان غلايزر في مرحلة البحث لإعداد كتابه انتصار المدينة (*Triumph of the City*)، أخذ يستكشف أماكن مثل حي دارافي في مومباي، وهو ما وصفه بأنه «تجربة ساحرة للغاية». فمن بين الأحياء الأكثر كثافة سكانية في العالم، ينبض حي دارفي بطاقة ريادة الأعمال، حيث يعمل صُنَّاع الأواني الفخارية والخياطون وغيرهم من الحرفيين جنبا إلى جنب في أزقة ضيقة ضعيفة الإنارة.

وفي الوقت نفسه، تذكرك الشوارع غير الممهدة والهواء الملوث والبالوعات المفتوحة بمساوئ الكثافة السكانية. لكن غلايزر لا يستشعر حسرة على الفقر في تلك الأماكن، بل يقول، على العكس، إن المدن تجتذب الفقراء تحديدا لأنها تتيح لهم الفرصة. وبالنسبة للعالم النامي، يمثل التوسع الحضري أفضل سبيل إلى الرخاء.

ويقول غلايزر: «برغم كل المشكلات، هناك أشياء هائلة تحدث في الهند وفي إفريقيا جنوب الصحراء وأمريكا اللاتينية. فلا شك أن الأمور لا تسير دائما في الاتجاه الصحيح، لكن المدن تحقق معجزات العمل المشترك منذ آلاف السنين، وكلما ذهبت إلى مدينة في العالم النامي، يتضح لي أن عصر المعجزات لم ينته». FD

كريس فيليش عضو في فريق تحرير مجلة التمويل والتنمية.